فارس وفارس

للأستاذ محمود الخفيف

بَنِي الشرقِ أيّامُ أبطالِكُمْ ... شَدَوْتُ أُحَدِّثُ أخبارَها
أُغَنِّي لكمْ لَحْنَ قيثارةٍ ... تَهُزُّ البطولاتُ أوتارَها
وأُسمِعُكُمْ من حديثِ الخُلودِ ... أغاني الليالي وأسمارَها

بَنُو السيفِ نحنُ ، بُناةُ العُلا ... رَكِبْنا الرِّمالَ وخُضْنا البِحارا
شَرَعْنا عَلَى الدِّينِ منها جَنًا ... وسِرْنا إلى حيثُ شِئْنا اقتدارا
وأخلاقنا ... كم بأخلاقِنا ... رَكَزْنا صُوًى وَرَفَعْنا مَنارا
وكم أُفقٍ في سماءِ العُقولِ ... شَأَوْنا بني الأرضِ فيها ابتكارا

إلى فِتْيَةِ الشرقِ هذا النشيد ... تقارَعَ فيهِ القَنَا واشتَجَرْ
وَقَفْقَفَتِ البيضُ بين الصفوفِ ... وَغَالَ الكُماةَ الرَّدَى وَاستَمَرْ
وَحَمْحَمَتِ الخَيْلُ تَحْتَ الغُبارِ ... أضاءتْ جوانِبَهُ بالشَّرَرْ

أُدِيرُ النَّشِيدَ إلى فارِسَيْنِ ... حَوَتْ رُكْنَيِ الأرضِ لُقْيَاهُما
فمِنْ أنجُمِ الشَّرْقِ هذا الكَمِيُّ ... ومِنْ أُفُقِ الغَرْبِ ثانيهِما
وكلٌّ يُرَى بين فُرْسانِهِ ... غَدَاةَ الوَغَى الفارِسَ المُعْلَمَا
على هذه الأرضِ تَفنَى القُرُونُ ... وَتُوحِي البُطولةَ ذِكراهُما

سَمَا بابْنِ أيُّوبَ مُلْكٌ بَنَاهُ ... فأعْلَى عَلَى السَّيْفِ هذا البِنَاء
أخو الخَيْلِ والسَّيْفِ والبِيدِ واللَّيْـ ... ـلِ يَمْضِي فيُزجِي الرَّدَى كيفَ شاء
فتًى كانَ في الشَّرقِ بعدَ الظَّلامِ الضِّيَاء وكانَ بمِصْرَ الرَّجاء
كَرِيمُ الخُصُومَةِ عَفُّ الحُسَامِ ... يُرِيكَ التُّقَى وَيُرِيكَ المَضاء

فتَى الغَرْبِ إفْرِنْدُهُ فَيْصَلٌ ... به المُلْكُ في ظِلِّهِ يَحْتَمِي
لهُ لَقَبٌ فوقَ تاجِ المُلوكِ ... به باتَ يُقْرَنُ بالضَّيْغَمِ
على الماءِ كُرْسِيُّهُ قائمٌ ... وَذِرْوَتُهُ في ذُرَى الأنجُمِ

مَشَتْ في النَّجِيعِ إلى (أُرْشَلِيمَ) ... جِيَادٌ من الغربِ رُعْنُ الحَبَبْ
خَبَبْنَ بِكُلِّ مُدِلِّ الحُسامِ ... صَرِيمِ الخِصامِ دَعِيِّ الحَسَبْ
لقَدْ كانَ للدِّينِ ما هَزَّهُ ... فأصْبَحَ لِلمُلْكِ حينَ اغْتَرَبْ

مَضَوا يَزْدَهِي الفَوْزُ أفراخَهُمْ ... وَيُغْرِي بُزَاتَهُمُ المَأْرَبُ
غِلاظٌ ، سَرَابِيلُهُمْ مِنْ حَدِيدٍ ... مِنَ الصَّخْرِ أكبادُهُمْ أصْلَبُ
يُحَدِّثُ كلاًّ هَوَاهُ بما ... يُجَدِّلُ في القُدْسِ أو يَسْلُبُ
وَيَسْتَهْزِؤُونَ بدُنيا الهِلَالِ ... وَحَشْدُهُمُو بالمُنَى يَصْخَبُ

فما إنْ نَجَا قَطُّ مِنْ بَطْشِهِمْ ... صَبِيٌّ ولا طِفْلَةٌ لاعِبَهْ
ولا مُقْعَدٌ قَوَّسَتْهُ السِّنُونَ ... وَلا جَدَّةٌ شَمْسُها غارِبَهْ
وَلا سَلِمَتْ من بناتِ الحِجَالِ ... عَرُوسٌ مُلَفَّفَةٌ هَائِبَهْ

لَدَى مَدْرَجِ السَّمْحِ عِيسَى المَسِيحِ ... أثارَ دُعاةُ السلامِ القِتالا !
مُسُوحُ الرُّهابِينَ باتَتْ حديداً ... وَأَلْسِنَةُ الزاهدينَ نِصالا
وَعُدَّ هُدًى كلُّ غَيٍّ جَمُورٍ ... وأصبحَ كلُّ حَرامٍ حَلالا

وطالت على الشرق سود السنين ... أذل الصليب بنو الهلالا
أقاموا على البغي بنيانهم ... وعاثوا على البغي دهراً طويلا
وغم على الشرق تسعين عاما ... فما يلمح النور إلا ضئيلا
يسيل على الأفق جرح الهلال ... إذا ما أطل، سقيماً هزيلا
وتسمع مصر ومن بالحجاز ... ومن بالعراق الأذان عويلا
وما زال يبطش طغيانهم ... إلى أن تألق فجر الأمل
وهل من الشرق مثل الصباح ... زعيم ترد ثياب البطل
تجدد وثبانه ابن الوليد ... وسعدا وعمرا بنيه الأول
إذا سار فالنصر من يمنه ... فتى لا يرى العيش إلا كفاحا
فتى ذكره هز شم الحصون ... ويغزو اسمه إذ يهز السلاحا
صلاح ومن كابن أيوب سيفاً ... إذا ذكر الدارعون صلاحا ؟
ومن مثله حين يعطي العهود ... ويرعى الحدود ويأسو الجراحا
مشى نحو «حطين» في فيلق ... يرف له النصر حول العلم
يدين لأروع ثبت الجنان ... جميل الفعال كريم الشيم
ذليل السماحة حلو اللسان ... عصي الإباء بعيد الهمم
تقدم فانهار من حوله ... على البغي ركن أقيم اغتصابا
رأى يوم حطين تحت العجاج ... جنود صلاح أسوداً غضابا
ألوف الرجال لديه أسارى ... ومن فر ليس يطيق اقترابا
ويذعن كل قوي عزيز ... وتهوى للعاقل باباً قبابا
ودان له القدس بعد الإباء ... وأعظم به للهلال انتصارا
وراح المظفر يولي الأمان ... ويطلق في «أرشليم» الأسارى
وأجمل ما كان عفو الرجال ... إذا ساقه مانحوه اقتدارا
ترفع لا سيفه قاتل ... بريئاً، ولا وعده خاتل
ولا غره النصر في أوجه ... ولا خاب في عدله آمل
وديع السمات جميل الأناة ... وفي درعه أسد باسل
يلوذ به الحق مستعصما ... ويفرق من وجهه الباطل
وأدهش أعداءه نبله ... وذاعت أحاديث أفضاله
وأروع ما هز سمع الفرنج ... من الفضل غرة أفضاله
بجود لفدية بعض الأسارى ... لفرسانه الشم من ماله !
تألق في الشرق نور الهلال ... وصاحبه اليمن في طلعته
وكان غريباً بأوطانه ... خيال المذلة في هالته
تبسم في الأفق بعد الشحوب ... فغاظ وأعجب في بسمته
ودوى فأطرب صوت الأذان ... جلال المصلين في نبرته
أفاق على نبأ جاءهم ... بتو الغرب، يكرهه السامعونا
تثيرهم النذر الشائعات ... ويقتنص الفرصة الطامعونا
وينفخ في الصور رهبانهم ... فيأتي على الصيحة الذارعونا
وهبت من المغرب العاصفه ... على الشرق تنذر بالراجفه
في البحر طائفة في السفين ... تسارع في إثرها طائفه
وفي البر فوق متون الجياد ... ألوف مدججة زاحفه
إذا هاجها الزحف غنى الحديد ... وغنت حناجرهم هاتفه
أطلت على الحشد أسوار عكا ... خضما يزيد لديها ارتطاما
حوى المرد والشيب والعلية الصيد والثابيهم خليطاً ترامى
تشاوى النصال، بأرماحهم ... جنون سقاها هناك احتداما
ومن دون عكا شبول الغرين ... من الشرق تمنع أسوارها
يطوف على الجند سلطانهم ... مهيب للامح قهارها
مطاعاً له طلعة في الصفوف ... تعودت الجند إكبارها
ويقذيه في الحرب أجنادة ... إذا راح يركب أخطارها
وعززت على الطالبين القلاع ... وإذ مر عامان زدن امتناعا
وذاق حماة الصليب الهوان ... فما شهدوا مثل هذا صراعا
أهابوا وقد عج موج المنايا ... بأوطانهم فأجابت سراعا

وَلَبَّى الملوكُ النِّداء فى البَسْـــرِ جيشُ «فِردريكَ» جَمُّ العددْ
وجيشُ الفرنسيسَ حشدٌ عظيمٌ وفى البحرِ أسطولُ قلبِ الأسدْ
فتى الغربِ «ريكَرْدُ» خيرُ السيوفِ الجسورُ النَّجيدُ القَوِيُّ السَّنَدْ
فتًى ليسَ يَنْزِعُ عن قَوْسِهِ سِواهُ ولا جَلَّ عنهُ أحدْ

وأزْعَمَ «ريكَرْدُ» تلكَ الحصونَ فما إنْ تَطامَنُ إلاَّ لهُ
وإنْ كان لاقَى من ابنِ القِفارِ من البطشِ والبأسِ ما هالهُ
وكانَ «صلاحٌ» رَمَى بالرِّجالِ «فِردريكَ» يَدْفَعُ إقبالهُ

وما كادَ يُزْمِى بإكليلِهِ فتَى الغَرْبِ حتَّى اعتراهُ الهزالُ
أَلَحَّ على جِسْمِهِ القَسْوَرِىِّ لدى ساحةِ المَوْتِ داءٌ عُضال
ثَوَى اللَّيْثُ حيناً على رَغْمِهِ وَعُلِّقَ ـ حَتَّى يُبِلَّ ـ القِتال
يُعَذِّبُهُ خَوْفُهُ أن يطولَ ضناهُ ، وأن يَتراخى الرِّجال

وأعْجَبَ ذاكَ المصورَ للريضَ طَبيبٌ سعى من لَدُنْ خَصْمِهِ
يقول لهُ قومُهُ : أقْصِـــهِ وَنَجِّ دماءَكَ من سُمِّهِ
فقال : جَهِلْتُمْ لَعَمْرِى صلاحًا تَنَزَّهَ عن ذاكَ عالى اسمِهِ !

سقاهُ وناولهُ رُقعـــةً تَنَزَّى وَغَمْغَمَ لمَّا تلاها !
تَمنى لهُ البُرْءَ فى طيِّها صلاحٌ لِتَدْرِى الوَغَى من فَتاها:
« إذا رُمْتَ سِلْماً مَنَنْتُ بها وإن رُمْتَ حَرْباً أدَرْتُ رَحاها
وأعْزِزْ بِنَفْسٍ كَنَفْسِكَ أن يكونَ بِغَيْرِ الحُسامِ رداها »

وأكْبَرَ «ريكَرْدُ» هذا العَدُوَّ فأثنَى وأطنبَ فى حَمْدِهِ
وكم أخجلته لدى ذِكْرِها شمائلهُ الغُـــرُّ فى جُنْدِهِ
أخو البيدِ أسمَى فروسيَّةً فأنَّى لهُ ذاكَ فى بيدِهِ ؟

أتَتْ بابَهُ من بَناتِ الفرنجِ تُوَلْوِلُ أمٌّ ، وَتَدْعُو بِهِ
قَدْ اختَطَفَ ابناً لها فارسٌ وَيا هَوْلَ ما كان من غَصْبِهِ
بكى رَحْمَةً وَهْوَ ذاكَ الذى إلى اللَّيْثِ يُنْسَبُ فى وَثْبِهِ
وأجْزَلَ لِلْجُنْدِ من مالِهِ فِدًى للصَّـــبِىِّ ، فَجِئَ بِهِ

وَمَالَ إلى السِّلْمِ قَلْبُ الأسَدْ وَلَبَّى صلاحٌ فأمضَى العُهودا
وَلَكِنَّهُ رِيعَ أنْ جاءهُ من الخَصْمِ خُلْفٌ أثارَ الجُنودا
لقد فتكَ القَوْمُ بالأبرياء وَما إن رعَوا لِعُهودٍ وُجُودا

سقَتْ أرْضَ عَكَّا دِماءٌ حَرَاءٌ وَطافَ الفِرِنْجُ بها باطشينا
فوارِسُهُمْ يَذْبَحونَ النِّساءَ وَزُغْبَ البناتِ بها والبنينا
وَكَمْ ذَكَرُوا الشرقَ سُلطانَهُ وَصَفْوَةَ فُرْسانِهِ هازئينا
أهابَ صلاحٌ بِفُرْسانِهِ فَسَارُوا سُيوفَهُمو صائحينا

لدى غابِ أرْسُوفَ سَوَّى الرجالَ صُفُوفاً تَلاحَقَ تحتَ العَلَمْ
مِنَ الفِيلِ أصْحَرَ أجنادُهُ وَجَرَّ الحديدَ أسُودَ الأجَمْ
ونادَى المنادُونَ فيهم هَلُمُّوا تَرَاءى العَدُوُّ لنا من أمَمْ

هُنَا الشرقُ جُنْدُ الهلالِ ، هنا بنو الشَّمْسِ والبِيدِ شُمُّ القَنَا
دماءُهُمو كم كَوَتْهَا الصَّحَارى وأعْظِمْ بِصَحْرائِهم مَوْطِنا
خِفافُ الهياكِلِ ضُمْرُ الجِيادِ إذا زَحَفُوا قلتَ وَمْضُ السَّنَى !
تَنادَوْا على نَقَرَاتِ الطُّبولِ فداعٍ هناكَ وشادٍ هنا

على قَرْسخينِ يَرَى الغربُ حَشْدًا خَلِيطاً هناكَ تَلاقَوْا دِرَاكا
فِمِنْ كلِّ لِسْنٍ ومن كلِّ شَعْبٍ وَمَلْكٌ هنا وَأَمِيرٌ هنا كا
حُمَاةُ الصَّلِيبِ نَسُوا فى الصَّلِيبِ خِصَاماً فَشَى بينهم واعترا كا

وَدَارَ القِتَالُ فَطَارَتْ مِهامُ بَنِى البِيدِ يَغْرَقُ فيها البَصَرْ
تُصَوِّبُ نَحْتَ مُثَارِ العَجَاجِ وَتَنْقَضُّ يَقْدَحُ منها الشَّرَرْ
فَتُصْمِى الجِيادَ وَتُلْقِى الرِّجالَ على الرَّمْلِ مُلْتَهِبًا وَالصَّخَرْ
كأنَّ الجَحِيمَ رَمَتْ باللظى على مُلْتَقَى بالغُبارِ اعْتَكَرْ

وَذَاقَ الفِرِنْجُ صُنُوفَ العَذَابِ فَفِى كلِّ يومٍ يَرَوْنَ الرَّدَى
وَرَاحَ قَبِيلٌ يقولون : ماذا نَرَى من سِهامِ العَدُوِّ غدا
يُسِرُّونَ سُخْطاً على من دَعاهمْ وَأوْرَدَهُمْ ذلكَ المَوْرِدا

وَغِيظَ الفِرِنْجُ فَشَدُّوا الوَثاقَ وَجَدَّتْ لهمْ كَرَّةٌ خاسِرَهْ !
وَهَرْوَلَ رِيكَرْدُ بين الصُّفوفِ يَشُـــدُّ عَزَائِمَهَا الخائِرَهْ
وَزَمْجَرَ كاللَّيْثِ يَدْعُو الجُنودَ وَيَجْمَعُ آلافَهَا النَّـــافِرَهْ
وَهَاجَ ، فَجُنَّ جُنونُ الرِّجالِ وَكَرَّتْ عَلَى صَوْتِهِ زائِرَهْ